المبحث الرابع

ترتيب المتعلم وأخلاقياته

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تصنيف المتعلمين وأعدادهم.

المطلب الثاني: شروط قبول الطلبة.

المطلب الثالث: آداب المتعلم وأخلاقياته.

المطلب الأول: تصنيف المتعلمين وأعدادهم.

فتحت المدارس الإسلامية أبوابها لجميع الراغبين في طلب العلم على اختلاف أعمارهم وفئاتهم ومستوياتهم العلمية. ويمكن تصنيف المتعلمين إلى فئتين:

- **فئة الطلبة العارضين:** وتشمل أعدادا كبيرة من عامة الناس وخاصتهم وطلبة العلم وغيرهم ممن يحضرون الدروس ومجالس الوعظ بين الحين والآخر، دون أن يتفرغوا للدراسة، أو يواظبوا على تحصيلهم العلمي. وقد يتجاوز عدد طلبة هذه الفئة المئات والآلاف في بعض المدارس[1]. ففي نظامية نيسابور درس إمام الحرمين الجويني[1]

(١) تناقل عدد من الباحثين دون أن يشيروا إلى مصدر معلوماتهم أن المدرسة النظامية "كان فيها ستة آلاف تلميذ يتلقون فيها العلوم الدينية والفقه والتفسير والحديث والنحو والأدب وغير ذلك". انظر: المدرسة النظامية في بغداد، نفيسي، سعيد، ترجمة حسين علي محفوظ، مجلة المجمع العلمي العراقي، ج١، =

(ت:٤٧٨هـ/١٠٨٥م) و"حضر درسه الأكابر والجمع العظيم من الطلبة، وكان يقعد بين يديه كل يوم نحو من ثلاثمائة رجل من الأئمة ومن الطلبة"[٢].

- **فئة الطلبة المنتظمين:** وهم الطلبة الذين يقضون شطراً من حياتهم متفرغين للدراسة وطلب العلم، وينتظمون في مدرسة، وتجرى عليهم جراياتها، بغض النظر عن مكان إقامتهم، وإن كان الغالب أن يكون في المدرسة.

واشتهر إطلاق صفة الفقهاء والمتفقهين على طلاب الفقه في المدرسة، فيقال: رُتب فيها فقيها، أو أثبت في جملة فقهائها، ويراد طلاب الفقه فيها. وهذا الإطلاق على سبيل المجاز[٣]، على اعتبار ما يعد له الطالب، وأصله لقب من ألقاب العلماء.

أولاً: طبقات الطلبة:

كان الطلاب في المدرسة يقسمون على الغالب إلى طبقتين:

١. **طبقة المبتدئين:** وتضم الطلبة الذين التحقوا بالمدرسة، وبدؤوا الاشتغال بالدراسة، وتمثل هذه الطبقة معظم طلاب المدرسة. وتشمل معظم سنوات الدراسة.

٢. **طبقة المنتهين:** وتضم فضلاء الطلبة الذين أنهوا دراستهم المقررة، وبدؤوا بالبحث والمناظرة والإفادة تأهيلا للإعادة والإجازة بالتدريس.

ومن الملاحظ أن بعض المدارس قسمت طلابها إلى ثلاث طبقات: مبتدئين ومتوسطين ومنتهين، ففي شرط المدرسة التنكزية في القدس أن يرتب فقهاؤها على ثلاث طبقات: منتهين ومتوسطين ومبتدئين[٤]. وفي دار الحديث الأشرفية يتحدث السبكي (ت:٧٧١هـ/١٣٦٩م) عن ثلاث طبقات: طبقة المبتدئين وطبقة المتوسطين

=

مج٣، بغداد، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م. ص ١٤٧. وشلبي، أحمد، تاريخ التربية الإسلامية، (مرجع سابق)، ص٢٩٥. وعبد الغني، عارف، نظم التعليم عند المسلمين، (مرجع سابق)، ص١٠٣. وغيرهم.

(١) سبقت ترجمته صفحة: ٦٤.

(٢) السبكي، تاج الدين بن تقي الدين، طبقات الشافعية الكبرى، (مرجع سابق)، ج٥، ص١٧١.

(٣) القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، (مرجع سابق)، ج٦، ص٢٢.

(٤) انظر: العسلي، كامل جميل، وثائق مقدسية تاريخية، (مرجع سابق)، ص١١٣.

والطبقة العليا[١]. ويبدو أن معظم المدارس لم تفرق بين طبقة المبتدئين والمتوسطين، واعتبرتها طبقة واحدة.

ولم يكن لهذا التقسيم نظام متبع، أو مدة محددة، أو منهج محدد، والضابط فيه هو تقييم المدرس لمستوى الطالب التحصيلي. حيث يقوم المدرس بإنهاء الطالب عندما يجد فيه الأهلية لذلك. وقد يلحقه بطبقة المنتهين مباشرة، أو بعد فترة قصيرة[٢]. كما كان بعض المدرسين يصطفون فضلاء الطلبة الموهوبين، ويخصونهم بمزيد من الرعاية، ويقيمون لهم مجالس علمية خاصة[٣].

ثانياً: أعداد الطلبة:

خضع عدد الطلبة في المدارس لعاملين رئيسين هما: إمكانية استيعاب الطلبة، وشرط مؤسس المدرسة.

أما العامل الأول: فقد كان يحكمه مساحة المدرسة، وعدد قاعات الدراسة ومساحاتها، وعدد بيوت الطلبة فيها، وعدد أساتذتها المعينين فيها. وكثيراً ما كان الأمر يترك لتقدير الناظر أو المدرس.

أما العامل الثاني: فقد كان واقف المدرسة يحدد عدد الطلبة بناء على معايير مختلفة منها ما يتعلق بريع الوقف، ومنها ما يتعلق بقدرة المدرسة على استيعاب الطلبة، ومنها ما يتعلق بميوله المذهبية.

وقد تفاوت أعداد الطلبة في المدارس تفاوتا كبيرا، فقد بلغ عدد طلاب المدرسة المستنصرية قرابة ثلاثمئة طالب موزعين على النحو الآتي: في قسم الفقه مئتان وثمانية وأربعون متفقها، من كل مذهب اثنان وستون. وفي دار القرآن ثلاثون طالبا، وفي دار الحديث عشرة طلاب، وفي قسم الطب عشرة طلاب[٤].

---

(١) انظر: السبكي، تاج الدين بن تقي الدين، طبقات الشافعية الكبرى، (مرجع سابق)، ج١٠، ص٣٩٩.

(٢) المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

(٣) انظر: النعيمي، عبد القادر، الدارس في تاريخ المدارس، (مرجع سابق)، ج٢، ص٢٧٣ وص٣٤٨

(٤) انظر: ابن الفوطي، عبد الرزاق البغدادي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة، (مرجع سابق)، ص٥٨.

أما المدرسة الحسنية في مصر والتي تعد أكبر مدرسة أنشئت في العصر المملوكي فقد بلغ عدد الطلبة فيها أربعمئة طالب، وقد أمر الواقف بترتيب مئة طالب لكل مذهب بين مقيم بالمدرسة ومتردد عليها[١].

وفي المدرسة الصرغتمشية في مصر رتب الواقف فيها ستين طالبا لدراسة الفقه الحنفي، وخمسة عشر طالبا لدراسة الحديث الشريف[٢].

كما قامت بعض المدارس على أعداد يسيرة من الطلبة، ففي المدرسة التنكزية بالقدس شرط الواقف أن يرتب فيها خمسة عشر فقيهاً[٣]. وفي المجدية الخليلية بمصر رتب الواقف فيها عشرين طالباً[٤]. وفي المدرسة الشامية الجوانية ربط الواقف زيادة عدد الطلاب بزيادة الوقف فشرط" أن لا يزيد عدد الفقهاء والمتفقهة المشتغلين بهذه المدرسة عن عشرين رجلاً من جملتهم المعيد بها والإمام، وذلك خارج عن المدرس والمؤذن والقيم، إلا أن يوجد في ارتفاع الوقف نماء وزيادة وسعة فللناظر أن يقيم بقدر ما زاد ونما"[٥].

وفي بعض المدارس التي كانت تدرس المذاهب الأربعة نجد تفاوتا بعدد طلبة كل مذهب. ففي المدرسة المؤيدية بمصر أمر الواقف بترتيب "خمسين طالبا لدراسة المذهب الحنفي، وأربعين طالباً لدراسة المذهب الشافعي، وخمسة عشر طالباً للمذهب المالكي، وعشرة طلاب لدراسة المذهب الحنبلي، وعشرين طالباً لكل من

---

(١) انظر: عبد العاطي، عبد الغني محمود، التعليم في مصر زمن الأيوبين والمماليك، (مرجع سابق)، ص٢٣٦. نقلاً عن وثيقة السلطان حسن بن قلاوون رقم ٨٨١ أوقاف.
و أمين، محمد محمد، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، (مرجع سابق)، ص٢٤٧.

(٢) انظر: أمين، محمد محمد، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، (مرجع سابق)، ص٢٤٧. نقلاً عن وثيقة وقف الأمير صرغتمش رقم ٣١٩٥ أوقاف.

(٣) العسلي، كامل جميل، وثائق مقدسية تاريخية، (مرجع سابق)، ص١١٣.

(٤) انظر: المقريزي، أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (مرجع سابق)، ج٢، ص٤٠٠.

(٥) النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، (مرجع سابق)، ج١، ص٣٠٣.

درس التفسير والحديث، وعشرة طلاب لدرس القراءات"[١]. وفي المدرسة الأشرفية بمصر رتب خمسة وعشرين طالبا للمذهب الحنفي وعشرين طالباً للمذهب الشافعي، وعشرة طلاب لكل من المذهب المالكي والمذهب الحنبلي[٢].

ويرجع هذا التفاوت في أعداد الطلبة إما لميول الواقف المذهبية، أو "ربما تتفق مع نسبة أهل المذاهب في مصر، فقد كانت الغالبية للمذهبين الحنفي والشافعي، أما المالكية والحنابلة فيمثلون نسبة ضئيلة"[٣].

المطلب الثاني: شروط قبول الطلبة

لم يكن لقبول الطلبة في المدارس شروط معينة. فكل من يجد لديه الرغبة في طلب العلم، ويمتلك الأهلية اللازمة يمكنه الالتحاق بالمدرسة التي يريد. و"قد استفاد طلبة العلم من تلك المبادئ السامية التي نادى بها الإسلام، من مبدأ المساواة وتكافؤ الفرص في التعليم للجميع، ومبدأ مجانية التعليم، حيث فتحت أبواب المؤسسات التعليمية للغني والفقير على حد سواء، فمتى كان المتعلم أهلا للتعلم وراغبا ومحبا للعلم والبحث والإطلاع، تيسرت له وسائل التعلم، وفتحت أبوابه أمامه، ولقي التشجيع من الجميع"[٤].

وكان مدار القبول في المدارس يبنى على مدى استعداد الطالب لطلب العلم وصلاحيته ففي المدرسة الشامية الجوانية بدمشق اشترط الواقف في طلبتها أن يكونوا من أهل الخير والدين والصلاح والعفاف وحسن الطريقة وسلامة الاعتقاد والسنة والجماعة[٥]. وفي المدرسة التنكزية بالقدس كان من شرط الفقيه فيها "أن يكون من أهل الخير والدين والصلاح"[٦]. وفي المدرسة المؤيدية بمصر أن يكون من

---

(١) أمين، محمد محمد، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، (مرجع سابق)، ص٢٤٨. نقلاً عن وثيقة المؤيد شيخ رقم ٩٣٨ أوقاف.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٤٨. نقلاً عن وثيقة السلطان الأشرف برسباي رقم٨٨٠ أوقاف.

(٣) النباهين، علي سالم، نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك في مصر، (مرجع سابق)، ص٣١٦.

(٤) سعد الدين، محمد منير، دراسات في تاريخ التربية عند المسلمين، (مرجع سابق)، ص٦٣.

(٥) النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، (مرجع سابق)، ج١، ص٣٠٣.

(٦) العسلي، كامل جميل، وثائق مقدسية تاريخية، (مرجع سابق)، ص١١٣.

"الطلبة المستعدين لطلب العلم، الصالحين للتفهم"[١]. وفي المدرسة الجمالية: أن يكون "من الطلبة الحذق ذوي الفطنة والذكاء والنباهة والأهلية"[٢].

ولم يكن لهذه الشروط ميزان تقاس فيه، ويترك ذلك غالبا للمدرس الذي يستطيع بخبرته أن يعرف مدى صلاحية الطالب وأهليته. وفي بعض الأحيان كان للواقف رأي ونظر، فقد ورد لما اكتمل بناء المدرسة المؤيدية، عرض الطلبة على السلطان (واقف المدرسة) " فقرر من شاء، وصرف من لم يصلح في نظره"[٣].

غير أن بعض الواقفين للمدارس اشترطوا في الطلبة شروطا أخرى أرادوا بها خدمة طلبة العلم، وتوفير البيئة العلمية المناسبة، أو فتح الباب أمام الطلبة الذين يصعب عليهم الالتحاق بمثل هذه المدارس، ففي المدرسة الصرغتمشية اشترط الواقف "أن يكون طلبة مدرسته من الغرباء... وهذا إجراء قصد به الواقف خدمة الطلبة الذين لم تتيسر لهم الدراسة في بلدانهم"[٤]. وكانت الأولوية في المدرسة التنكزية للغرباء والعزاب حيث جاء في شروط وقفها: "ويقدم الغريب على الفقيه من أهل القدس، ويقدم العزب على المتزوج منهم"[٥]. وفي المدرسة البادرائية "شرط على المقيم بها العزوبية، وأن لا يكون الفقيه في غيرها من المدارس، وإنما أراد بذلك توفير خاطر الفقيه وجمعه على طلب العلم"[٦]. أما المدرسة الرواحية فقد شرط على المدرس أن لا يُدخِل مدرسته يهودياً ولا نصرانياً ولا حنبلياً حشوياً[٧]. ولعله أراد بهذا الشرط صيانة عقيدة الطلبة المبتدئين وإبعادهم عن الجدل والخوض فيما يعكر عليهم صفو دراستهم.

---

(١) عبد العاطي، عبد الغني محمود، التعليم في مصر زمن الأيوبين والمماليك، (مرجع سابق)، ص٢٣٦. نقلاً عن: حجة السلطان المؤيد شيخ رقم ٩٣٨ أوقاف.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٣٦. نقلاً عن: حجة جمال الدين الاستادار رقم ١٠٦، بدار الوثائق القومية.

(٣) ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، (مرجع سابق)، ج٧، ص٣٦١.

(٤) النباهين، علي سالم، نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك في مصر، (مرجع سابق)، ص٣١٣.

(٥) العسلي، كامل جميل، وثائق مقدسية تاريخية، (مرجع سابق)، ص١١٣.

(٦) النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، (مرجع سابق)، ج١، ص٢٠٦.

(٧) الذهبي، محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام ووفيات مشاهير الأعلام، (مرجع سابق)، ج٤٥، ص١٣٩.

المطلب الثالث: آداب المتعلم وأخلاقياته

لقد حرص العلماء على تأديب طلابهم وتربيتهم على الأخلاق والآداب اللائقة بطلاب العلم وفصلوا القول في بيان آداب طالب العلم في درسه، ومع نفسه، ومع شيخه، وألفوا في ذلك الرسائل والكتب، ولذلك يقول الزرنوجي[١] (ت:٥٩١هـ/١١٩٤م) في مقدمة كتابه "تعليم المتعلم طريق التعلم": "فلما رأيت كثيراً من طلاب العلم في زماننا يجدّون إلى العلم ولا يصلون، ومن منافعه وثمراته وهي العمل به والنشر يحرمون، كما أنهم أخطؤوا طرائقه، وتركوا شرائطه، وكل من أخطأ الطريق ضل، ولا ينال المقصود قل أو جل، أردت وأحببت أن أبين لهم طريق التعلم على ما رأيت في الكتب، وسمعت من أساتيذي أولي العلم والحكم... وسميته: تعليم المتعلم في طريق التعلم"[٢].

أولاً: أدب المتعلم في نفسه[٣]:

١. أن يطهر قلبه من كل غش ودنس وغلّ وحسد وسوء عقيدة وخلق؛ ليصلح بذلك لقبول العلم وحفظه، والاطلاع على دقائق معانيه وحقائق غوامضه، وكما قيل: العلم صلاة السر وعبادة القلب وقربة الباطن.. ولا يصح إلا بطهارة القلب عن خبث الصفات ومساوئ الأخلاق ورديئها. وقد شبه الإمام الغزالي[٤] (ت:٥٠٥هـ/١١١١م) القلب بالبيت وقال: هو منزل الملائكة ومهبط أثرهم، والعلم نور يقذفه الله في القلب بواسطة الملائكة، وإذا كانت الملائكة لا يدخلون بيتا فيه كلب، فكيف ينزلون القلب المليء بالأنجاس والخبائث والصفات الرذيلة مثل

---

(١) هو برهان الإسلام الزرنوجي، نسبة إلى بلده زرنوج من بلاد الترك، فقيه حنفي، من تلاميذ المرغيناني صاحب كتاب الهداية، وهو مصنف كتاب: "تعليم المتعلم طريق التعلم" فكان سبب شهرته. والمعلومات عنه قليلة جداً. توفي سنة ت:٥٩١هـ/١١٩٤م. انظر مقدمة المحقق في كتابه المذكور، تحقيق: صلاح محمد الخيمي ونذير حمدان، دار بن كثير، دمشق، ط١، هـ/١٩٨٥م.

(٢) الزرنوجي، برهان الإسلام، تعليم المتعلم طريق التعلم، (مرجع سابق)، ص٢٧.

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه، ص٣٠ وما بعدها.

(٤) سبقت ترجمته صفحة: ٤٦.

الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر.. فهذه الصفات مثل الكلاب النابحة في الباطن[١].

٢. **أن يحسن النية في طلب العلم** بأن يقصد به وجه الله تعالى والعمل به وإحياء الشريعة، والقرب من الله تعالى يوم القيامة. والعلم عبادة من العبادات وقربة من القرب، فإن خلُصَت فيه النية قُبِلَ وزكى، ونمت بركته، وإن قصد به غير وجه الله تعالى حبط وضاع، وخسرت صفقته. وربما تفوته تلك المقاصد ولا ينالها فيخيب قصده ويضيع سعيه.

٣. **أن يبادر شبابه وأوقات عمره إلى التحصيل، ولا يغتر بخدع التسويف والتأميل**؛ فإن كل ساعة تمضي من عمره لا بدَلَ لها ولا عوض عنها، ويقطع ما يقدر عليه من العلائق الشاغلة عن بذل الاجتهاد وقوة الجد في التحصيل. ولذلك يستحب لطالب العلم أن يكون عزبا ما أمكنه، ذلك لئلا يقطعه الاشتغال بحقوق الزوجة والاهتمام بالمعيشة عن إكمال طلب العلم[٢]، كما يستحب له التغرب عن الأهل والبعد عن الوطن؛ لأن الفكرة إذا توزعت قصرت عن درك الحقائق وغموض الدقائق، وقد قيل: "العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلّك"[٣].

٤. **أن يحسن اختيار الأماكن والأوقات للحفظ والدرس**، وأن يقسم أوقات ليله ونهاره. وأجود الأوقات للحفظ الأسحار، وللبحث الإبكار، وللكتاب وسط النهار، وللمطالعة والمذاكرة الليل. وقيل: "أجود أوقات الحفظ الأسحار، ثم نصف النهار، ثم الغداة. وحفظ الليل أنفع من حفظ النهار. ووقت الجوع أنفع من وقت الشبع. وأجود أماكن الحفظ الغرف، وكل موضع بعد عن الملهيات. وليس بمحمود الحفظ بحضرة النبات والخضرة والأنهار وقوارع الطرق لأنها تمنع غالبا خلو القلب"[٤].

---

(١) انظر: الغزالي، محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، (مرجع سابق)، ج١، ص٦٢.

(٢) الخطيب، أحمد بن علي البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وأدب السامع، (مرجع سابق)، ج١، ص١٥٠.

(٣) الغزالي، محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، (مرجع سابق)، ج١، ص٦٣.

(٤) النووي، المجموع شرح المهذب، ج١، دار إحياء التراث العربي، القاهرة، ط١٩٩٠م، ص٣٧.

٥. أن يقنع من القوت بما تيسر وإن كان يسيراً، ومن اللباس بما يستر مثله وإن كان خلقاً، فبالصبر على ضيق العيش ينال سعة العلم ويجمع شمل القلب عن مفترقات الآمال فتتفجر فيه ينابيع الحكم. قال الإمام الشافعي[١] (ت:٢٠٤هـ/٩٩٩م): "ما شبعت منذ ست عشرة سنة"[٢]، وسبب ذلك أن كثرة الأكل جالبة لكثرة الشرب، وكثرته جالبة للنوم والبلادة وقصور الذهن وفتور الحواس وكسل الجسم، هذا مع ما فيه من التعرض لخطر الأسقام البدنية. والأولى أن يكون أكثر ما يأخذ من الطعام ما ورد في الحديث الشريف: (ما ملأ آدمي وعاءً شراً من بطن، بحسب ابن آدم لقيمات يُقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنَفَسه)[٣].

٦. أن يأخذ نفسه بالورع في جميع شأنه، ويتحرى الحلال في طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه وفي جميع ما يحتاج إليه هو وعياله؛ ليستنير قلبه ويصلح لقبول العلم والنفع به، ولا يقنع لنفسه بظاهر الحل شرعاً مهما أمكنه التورع ولم تلجئه حاجة أو يجعل حظه الجواز بل يطلب الرتبة العالية. وعليه أن يقتدي بمن سلف من العلماء الصالحين في التورع عن كثير مما كانوا يفتون لغيرهم بجوازه.

٧. أن يقلل نومه ما لم يلحقه ضرر في بدنه وذهنه، ولا يزيد في نومه في اليوم والليلة على ثمان ساعات وهو ثلث الزمان، فإن احتمل حاله أقل منها فعل. ولا بأس أن يريح نفسه وقلبه وذهنه وبصره إذا كلّ شيء من ذلك أو ضعف بتنزه وتفرج في المستنزهات بحيث يعود إلى حاله ولا يضيع عليه زمانه. ولا بأس بمعاناة المشي ورياضة البدن.

٨. أن يترك العشرة فإن تركها من أهم ما ينبغي لطالب العلم، وخصوصاً لمن كثر لعبه وقلت فكرته؛ فإن الطباع سراقة، وآفة العشرة ضياع العمر بغير فائدة.

---

(١) سبقت ترجمته صفحة: ١١٦.

(٢) الأصفهاني، أحمد بن عبد الله، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج٩، (مرجع سابق)، ص١٢٧.

(٣) رواه الترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح، ورواه أيضاً ابن حبان وابن ماجه والحاكم وصححه الذهبي. انظر: ابن الأثير، المبارك بن محمد الجزري، جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، ج٧، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٤١٠، رقم الحديث: ٥٤٨٠

والذي ينبغي لطالب العلم أن لا يخالط إلا من يفيده أو يستفيد منه، فإن شرع أو تعرض لصحبة من يضيع عمره معه ولا يعينه على ما هو بصدده فليتلطف في قطع عشرته من أول الأمر قبل تمكنها فإن الأمور إذا تمكنت عسرت إزالتها. فإن احتاج إلى أن يصحبه فليكن صاحباً صالحاً ديناً تقياً ورعاً ذكياً كثير الخير قليل الشر حسن المداراة قليل المماراة إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه وإن احتاج واساه وإن ضجر صبره.

ثانياً: أدبه مع معلمه[١]:

١. أن يقدم النظر ويستخير الله فيمن يأخذ العلم عنه ويكتسب حسن الأخلاق والآداب منه وليكن إن أمكن ممن كملت أهليته وتحققت شفقته وظهرت مروءته وعرفت عفته واشتهرت صيانته وكان أحسن تعليماً وأجود تفهيماً ولا يرغب الطالب في زيادة العلم مع نقص في ورع أو دين أو عدم خلق جميل. وليجتهد أن يكون الشيخ ممن له على العلوم الشرعية تمام الإطلاع، وله مع من يوثق به من مشايخ عصره كثرة بحث وطول اجتماع، لا ممن أخذ عن بطون الأوراق ولم يعرف بصحبة المشايخ الحذاق.

وليحذر من التقييد بالمشهورين وترك الأخذ عن الخاملين فقد عدّ الغزالي[٢] (ت:٥٠٥هـ/١١١١م) وغيره ذلك من الكبر على العلم وجعله عين الحماقة؛ لأن الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها ويغتنمها حيث ظفر بها، ويتقلد المنّة لمن ساقها إليه فإنه يهرب من مخافة الجهل كما يهرب من الأسد، والهارب من الأسد لا يأنف مِنْ دلالة مَنْ يدله على الخلاص كائناً من كان.

٢. أن يتواضع لشيخه في أموره ولا يخرج عن رأيه وتدبيره، بل يكون معه كالمريض مع الطبيب الماهر، فيشاوره فيما يقصده ويتحرى رضاه فيما يعتمده، ويبالغ في حرمته، ويتقرب إلى الله تعالى بخدمته، ويعلم أن ذله لشيخه عز، وخضوعه له فخر، وتواضعه له رفعة. وقال عمر بن الخطاب[٣] ﷺ "تعلموا العلم

---

(١) انظر: الزرنوجي، برهان الإسلام، تعليم المتعلم طريق التعلم، (مرجع سابق)، ص٣٨ وما بعدها.

(٢) سبقت ترجمته صفحة: ٤٦.

(٣) سبقت ترجمته صفحة: ٧٨.

وتعلموا للعلم السكينة والحلم، وتواضعوا لمن تتعلمون منه، وليتواضع لكم من يتعلم منكم"[١]. وقال الإمام الغزالي (ت:٥٠٥هـ/١١١١م): "لا ينال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع"[٢].

وعليه أن ينظره بعين الإجلال ويعتقد فيه درجة الكمال فإن ذلك أقرب إلى نفعه به، وكان بعض السلف إذا ذهب إلى شيخه تصدق بشيء وقال: اللهم استر عيب شيخي عني ولا تذهب بركة علمه مني. وكان الشافعي رحمه الله يقول: "كنت أصفح الورقة بين يدي مالك رحمه الله صفحاً رفيقاً هيبة له لئلا يسمع وقعها"[٣]. وينبغي أن يخاطب شيخه بأجل الألقابٍ فيقول: يا سيدي ويا أستاذي، وأيها العالم، ونحو ذلك، وما تقولون وما رأيكم في كذا، وشبه ذلك.

٣. **أن يعرف له حقه ولا ينسى له فضله**، ومن ذلك أن يعظم حرمته ويرد غيبته ويغضب لها، فإن عجز عن ذلك قام وفارق ذلك المجلس. وينبغي أن يدعو له مدة حياته ويرعى ذريته وأقاربه بعد وفاته، ويتعاهد زيارة قبره والاستغفار له والصدقة عنه، ويسلك في السمت والهدى مسلكه، ويراعي في العلم والدين عادته، ويقتدي بحركاته وسكناته في عاداته وعباداته، ويتأدب بآدابه ولا يدع الاقتداء به.

٤. **أن يصبر على جفوة تصدر من شيخه أو سوء خلق**، ولا يصده ذلك عن ملازمته وحسن عقيدته، ويتأول أفعاله التي يظهر أن الصواب خلافها على أحسن تأويل، ويبدأ هو عند جفوة الشيخ بالاعتذار والتوبة مما وقع والاستغفار، وينسب الموجب إليه ويجعل العَتْبَ عليه فإن ذلك أبقى لمودة شيخه وأحفظ لقلبه وأنفع للطالب في دنياه وآخرته. وعن بعض السلف: "من لم يصبر على ذل التعليم بقي عمره في عماية الجهالة، ومن صبر عليه آل أمره إلى عز الدنيا والآخرة".

---

(١) الماوردي، علي بن محمد بن حبيب، أدب الدنيا والدين، تحقيق: محمد فتحي أبو بكر، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص٩٩.

(٢) الغزالي، محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، (مرجع سابق)، ج١، ص٦٤.

(٣) النووي، المجموع شرح المهذب، ج١، دار إحياء التراث العربي، القاهرة، ط١، ١٩٩٠م، ص٣٦.

وعليه أن يشكر الشيخ على توقيفه على ما فيه فضيلة، وعلى توبيخه على ما فيه نقيصة، أو على كسل يعتريه، أو قصور يعاينه أو غير ذلك مما في إيقافه عليه وتوبيخه إرشاده وصلاحه، ويعد ذلك من الشيخ من نعم الله تعالى عليه باعتناء الشيخ به ونظره إليه، فإن ذلك أمثل إلى قلب الشيخ وأبعث على الاعتناء بمصالحه.

٥. أن لا يدخل على الشيخ في غير المجلس العام إلا باستئذان، وأن يصبر حتى يخرج إليه. وأن يدخل على الشيخ كامل الهيئة متطهر البدن والثياب نظيفهما بعدما يحتاج إليه من أخذ ظفر وشعر وقطع رائحة كريهة، لاسيما إن كان يقصد مجلس العلم فإنه مجلس ذكر واجتماع في عبادة. وأن يدخل على الشيخ أو يجلس عنده وقلبه فارغ من الشواغل له، وذهنه صاف، لا في حال نعاس أو غضب أو جوع شديد أو عطش أو نحو ذلك؛ لينشرح صدره لما يقال ويعي ما يسمعه.

٦. أن يجلس بين يدي الشيخ جلسة الأدب بتواضع وخضوع وسكون واحترام، فيصغي إلى الشيخ ناظراً إليه، ويقبل بكليته عليه، متعقلاً لقوله بحيث لا يُحْوِجُه إلى إعادة الكلام مرة ثانية، ولا يلتفت من غير ضرورة، ولاسيما عند كلامه معه، ولا يعطي الشيخ جنبه أو ظهره، ولا ينفض كميه، ولا يحسر عن ذراعيه، ولا يعبث بيديه أو رجليه أو غيرهما من أعضائه، ولا يضع يده على لحيته، ولا يضرب الأرض براحته أو يخط عليها بأصابعه، ولا يستند إلى حائط أو مخدة، أو يجعل يده عليها، ولا يعتمد على يده إلى ورائه أو جنبه، ولا يكثر كلامه من غير حاجة، ولا يحكي ما يضحك منه أو يتضمن سوء أدب، وأن لا يجلس إلى جانب الشيخ ولا على مصلاه أو وسادته، وإن أمره الشيخ بذلك فلا يفعله إلا إذا جزم عليه جزماً يشق عليه مخالفته فلا بأس بامتثال أمره في تلك الحال ثم يعود إلى ما يقتضيه الأدب.

٧. أن يحسن خطابه مع الشيخ بقدر الإمكان ولا يقول له: لم؟، ولا: من نقل هذا؟، ولا: أين موضعه؟ وشبه ذلك، فإن أراد استفادته تلطف في الوصول إلى ذلك، كأن يقول: فإن قيل لنا كذا أو فإن منعنا ذلك، أو فإن سئلنا عن كذا أو فإن أورد كذا وشبه ذلك، ليكون مستفهماً للجواب سائلاً له بحسن أدب ولطف عبارة. وإذا ذكر الشيخ شيئاً فلا يقل: هكذا قلت أو خطر لي أو سمعت أو هكذا قال فلان، إلا أن يعلم إيثار الشيخ ذلك، وهكذا لا يقول: قال فلان خلاف هذا، وروى فلان

خلافه، أو هذا غير صحيح ونحو ذلك. وإذا أصر الشيخ على قول أو دليل ولم يظهر له أو على خلاف صواب سهواً فلا يغير وجهه أو عينيه أو يشير إلى غيره كالمنكر لما قاله بل يأخذه ببشر ظاهر، وإن لم يكن الشيخ مصيباً لغفلة أو قصور، نظر في تلك الحال، فإن العصمة في البشر للأنبياء عليهم السلام، وليتحفظ من مخاطبة الشيخ بما يعتاده بعض الناس في كلامه، ولا يليق خطابه به مثل: إيش بك، وفهمت، وسمعت، وتدري، ويا إنسان، ونحو ذلك، ولا يحكي له ما خوطب به غيره مما لا يليق خطاب الشيخ به، وإن كان حاكياً. وليتحفظ من مفاجأة الشيخ بصورة رد عليه فإنه يقع ممن لا يحسن الأدب من الناس كثيراً.

٨. إذا سمع الشيخ يذكر حكماً في مسألة أو فائدة مستغربة أو يحكي حكاية أو ينشد شعراً وهو يحفظ ذلك أصغى إليه إصغاء مستفيد له في الحال متعطش إليه فرح به كأنه لم يسمعه قط. قال عطاء: إن الشاب ليتحدث بحديث فأسمع له كأني لم أسمعه ولقد سمعته قبل أن يولد. فإن سأله الشيخ عند الشروع في ذلك عن حفظه له، فلا يجيب بنعم لما فيه من الاستغناء عن الشيخ فيه، ولا يقل لا لما فيه من الكذب، بل يقول أحب أن أسمعه من الشيخ، أو أن أستفيده منه، أو بعد عهدي به، أو هو من جهتكم أصح، فإن علم من حال الشيخ أنه يؤثر العلم بحفظه له مسرة به أو أشار إليه بإتمامه امتحاناً لضبطه وحفظه أو لإظهار تحصيله فلا بأس باتباع غرض الشيخ ابتغاء مرضاته وازدياد الرغبة فيه.

ولا ينبغي للطالب أن يكرر سؤال ما يعلمه ولا استفهام ما يفهمه؛ فإنه يضيع الزمان وربما أضجر الشيخ. وينبغي أن لا يقصر في الإصغاء والتفهم أو يشتغل ذهنه بفكر أو حديث ثم يستعيد الشيخ ما قاله لأن ذلك إساءة أدب بل يكون مصغياً لكلامه حاضر الذهن لما يسمعه من أول مرة. وإذا لم يسمع كلام الشيخ لبعده أو لم يفهمه من الإصغاء إليه والإقبال عليه، فله أن يسأل الشيخ إعادته وتفهيمه بعد بيان عذره بسؤال لطيف.

٩. أن لا يسبق الشيخ إلى شرح مسألة أو جواب سؤال منه أو من غيره، ولا يساوقه فيه، ولا يظهر معرفته به أو إدراكه له قبل الشيخ، فإن عرض الشيخ عليه ذلك ابتداء والتمسه منه فلا بأس. وينبغي أن لا يقطع على الشيخ كلامه؛ أي كلام

كان، ولا يسابقه فيه، بل يصبر حتى يفرغ الشيخ كلامه ثم يتكلم، ولا يتحدث مع غيره والشيخ يتحدث معه أو مع جماعة المجلس. وليكن ذهنه حاضراً في كل وقت بحيث إذا أمره بشيء أو سأله عن شيء أو أشار إليه لم يحوجه إلى إعادته ثانياً، بل يبادر إليه مسرعاً، ولم يعاوده فيه أو يعترض عليه بقوله فإن لم يكن الأمر كذا.

١٠. **إذا ناوله الشيخ شيئاً تناوله باليمين**، فإن كان ورقة يقرؤها كفتيا أو قصة أو مكتوب شرعي ونحو ذلك نشرها ثم دفعها إليه، ولا يدفعها إليه مطوية إلا إذا علم أو ظن إيثار الشيخ لذلك، وإذا أخذ من الشيخ ورقة بادر إلى أخذها منشورة قبل أن يطويها أو يتربها. وإذا ناول الشيخ كتاباً ناوله إياه مهيئاً لفتحه والقراءة فيه من غير احتياج إلى إدارته، فإن كان النظر في موضع معين فليكن مفتوحاً كذلك، ويعين له المكان، ولا يحذف إليه الشيء حذفاً من كتاب أو ورقة أو غير ذلك. ولا يمد يديه إليه إذا كان بعيداً ولا يحوج الشيخ إلى مد يده أيضاً لأخذ منه أو عطاء، بل يقوم إليه قائماً ولا يزحف إليه زحفاً، وإذا جلس بين يديه لذلك فلا يقرب منه قرباً كثيراً ينسب فيه إلى سوء أدب، وإذا ناوله قلماً ليمد به فليمده قبل إعطائه إياه، وإن وضع بين يديه دواة، فلتكن مفتوحة الأغطية مهيأة لكتابة منها، وإن ناوله سكيناً فلا يصوب إليه شفرتها ولا نصابها ويده قابضة على الشفرة، بل يكون عرضاً وحد شفرتها إلى جهته قابضاً على طرف النصاب مما يلي النصل جاعلاً نصابها على يمين الآخذ.

ولا يضع رجله أو يده أو شيئاً من بدنه أو ثيابه على ثياب الشيخ أو وسادته أو سجادته، ولا يشير إليه بيده أو يقربها من وجهه أو صدره أو يمس بها شيئاً من بدنه أو ثيابه. وإذا قام الشيخ بادر القوم إلى الأخذ بيده أو عضده إن احتاج، وإلى تقديم نعله إن لم يشق ذلك على الشيخ؛ ويقصد بذلك كله التقرب إلى الله وإلى قلب الشيخ. وقد قيل: أربعة لا يأنف الشريف منهن وإن كان أميراً؛ قيامُه من مجلسه لأبيه، وخدمته للعالم يتعلم منه، والسؤال عن ما لا يعلم، وخدمته للضيف.

١١. **إذا صادف الشيخ في طريقه بدأه بالسلام**، ويقصده بالسلام إن كان بعيداً ولا يناديه ولا يسلم عليه من بعيد ولا من ورائه، بل يقترب منه ويتقدم عليه ثم يسلم.

وإذا مشى مع الشيخ فليكن أمامه بالليل وخلفه بالنهار إلا أن يقتضي الحال خلاف ذلك لزحمة أو غيرها، ويتقدم عليه في المواطئ مجهولة الحال كوحل أو حوض، أو المواطئ الخطرة، ويحترز من ترشيش ثياب الشيخ، وإذا كان في زحمة صانه عنها بيديه إما من قدامه أو من ورائه.

ولا يشير عليه ابتداء بالأخذ في طريق حتى يستشيره. ويُعَرِّف الشيخ بمن قرب منه أو قصده من الأعيان إن لم يعلم الشيخ به. وإذا مشى أمامه التفت إليه بعد كل قليل، ولا يمشي لجانب الشيخ إلا لحاجة أو إشارة منه، ويحترز من مزاحمته بكتفه أو بركابه إن كانا راكبين وملاصقة ثيابه، ويؤثره بجهة الظل في الصيف وبجهة الشمس في الشتاء. ولا يمشي بين الشيخ وبين من يحدثه، ويتأخر عنهما إذا تحدثا أو يتقدم، ولا يقترب ولا يستمع ولا يلتفت، فإن أدخله في الحديث فليأت من جانب آخر ولا يشق بينهما.

***